السيد أحمد خان

(١٨١٧ — ١٨٩٨)

هو فى الهند أشبه شىء بالشيخ محمد عبده فى مصر بعد مفارقته للسيد جمال الدين وعودته من نفيه، الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالتثقيف والتهذيب، والنظر إلى الدين نظرة سماحة ويسر، والاستقلال يأتى بعد ذلك تبعاً ؛ فلا استقلال لجاهل ولا مخرّف ، إنما عماد الاستقلال العلم ، العلم بالدنيا وبالدين ، العلم بكل شىء أتت به المدنية الحديثة من طبيعة وكيمياء ، ورياضة وفلك ، ونفس واجتماع ، ونظام الحكم والإدارة ؛ ذلك كله إلى دين يحيى القلب ولا يقيد العقل ، ويغذى النفس ولا يُشِلّ التفكير ، والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك ؛ فليس فيه ما يمنع الإنسان أن يصل فى العلوم ونظم الدنيا إلى غايتها ، بل فيه ما يبعث على ذلك ويشجعه ، وفيه ما يحيى القلب ، ويوجّه الإنسان فى حياته وفى علمه وفى تفكيره إلى الخير. ثم كلاهما كان يرى أن السلطان فى مصر وفى الهند فى يد الإنجليز ، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر فى البر والبحر ، ومن القوة العلمية والسياسية ما لا تستطيع الهند ومصر مقاومته . قد يستطيعون المقاومة إذا اتحدوا ، ولكن كيف يكون اتحادهم مع جهلهم وضعف خُلقهم ، بل كيف يكون ذلك مع فساد أمرائهم — إذ ذاك — وبحثهم عن منافعهم الشخصية ولو على حساب الأمة ، — قالا : إذن فالأولى مسالمة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ ما نستطيع لخير الشعب منهم ؛ لنُفهِم الإنجليز أن عليهم واجب النهضة بالشعوب التى يحكمونها عقليًّا كما ينهضون بها ماديًّا، وأنهم مسئولون عن جهل الأمم التى يحكمونها ، كما أنهم

مسئولون عن فقرها، وأن العلم والثقافة و إنارة الأذهان فى مصلحة المستعمِر والمستعمَر، ولنأخذ منهم مانستطيع أن نأخذه من طريق الإقناع والمسالمة والمصالحة، ومانأخذه نستغله فى خير الشعوب وثقافتها خير استغلال، والزمن — بعد — كفيل بإظهار النتائج.

ثم كلاهما عانا من المتاعب ماعانى الآخر من جهتين: فمسالمة المستعمرين لاترضى — عادة — دُعاة الوطنية والاستقلال، ويرون فيها خيانة. وقد يرى بعضهم أن لا مفاوضة ولا مطالبة ولا مسالمة إلا بعد الجلاء، وكل من يطلب شيئاً دون هذا بائع لوطنه يستحق أن يهاجَم وينُقَد ويؤنَّب — ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التى ترى العلوم الحديثة التى أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة، والقول بأن قوانين الدنيا فى الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شيء مبنى على السبب والمسبب كُفر بالقضاء والقدر، وإنكار سلطة المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة. فهؤلاء وهؤلاء يَشُنون الغارة على مثل الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان، فيختطون هم دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة. وقد يمدّ الأمراء دعاة الرجعية بوسائلهم للنَّيل إلى أقصى حد من المصلحين من هذا القبيل؛ لأنهم نَقَموا عليهم الالتجاء إلى معونة الأجنبى دونهم، ولو التجئوا إليهم — مع الأسف — مانفعوهم؛ كل ذلك كان فى مصر وفى الهند، لأن طبيعة الأشياء واحدة، وقوانين الطبيعة لا تتخلف.

كانا على غير رأى السيد جمال الدين فى الإنجليز والاحتلال؛ كان السيد يكره الإنجليز ويشنع عليهم ما استطاع، بحكم مالقى منهم فى الأفغان والهند ومصر وباريس، حتى لقد عاتبه بعض أصحابه يوماً وقال له: إننا نراك عادلا فى حكمك على الأشخاص والأمم، تذكر بالخير حسناتهم، وبالشر سيئاتهم، ولا نراك تفعل ذلك فى الإنجليز. قال السيد: «ليس من ينكر أن الإنجليز — كأمة —

سید احمد خان

من أرقى الأمم ، تعرف معانى العدل ، وتعمل بها ، ولكن فى بلادها ، ومع الإنجليز أنفسهم » ، ثم ذكر له ما فعلته فى الهند ومصر . ولخص رأيه مرة أخرى وقال : « إن الشرقيين تصرفوا فى أملاكهم وأراضيهم و بلادهم تصرف السفيه المبذِّر ، ثم قُضى عليهم أن يكون الحاكم لهم هو الغرب ، والغرب — فى الحقيقة — ليس من مصلحته إصلاح سيرة الشرق ولا منعه من السَّفَه ، بل من أمانيه أن يتمادى الشرق فى غيّه و إسرافه ، ليطول عهد الحجر عليه» . فلما كانت عقيدة جمال الدين هذا كانت سيرته فى حياته ما ذكرنا .

أما السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده فيريان أن الإنجليز خصوم شرفاء معقولون ، يمكن التفاهم معهم ، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجاً لمصلحة الأمة ، حتى إذا نَضِجت الأمة أمكنها الحصول على حقوقها كاملة ، حيث لا تستطيع أن تنال شيئاً منها مع الجهل والغفلة .

* * *

هو السيد أحمد خان ابن السيد محمد متّقى خان من أسرة أرستقراطية نبيلة ، رحل أجداده من بلاد العرب إلى هراة ومن هراة إلى دلهى فى عهد « أكبر شاه » ، وقد ولد صاحبنا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨١٧ وتوفى والده وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، بعد أن ثقفه ثقافة دينية على عادة أهل زمنه و بلده . وقد جرَت أسرته على عادة التحرُّج من الاتصال بالإنجليز وخدمتهم ، ولكنه خالف أهل بيته والتحق بخدمة الحكومة أميناً للسجلات فى القلم الجنائى فى دلهى ، ثم عين منصفاً (قاضياً مدنيًا) فى « فاتح بور » من إقليم « أكرا » ثم منصفاً فى « بجنور » Bignaur ، وإذ هو فى هذا العمل فى هذه المدينة اندلعت نار الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ ، وقام الهنود بحركة عنيفة ، يخربون

السكك الحديدية ويذبحون الإنجليز حيثما وجدوهم ، ويدمّرون ما وصلت إليه أيديهم ، فكانت ثورة جامحة عنيفة أشد العنف ، وهاج الرأى العام على الإنجليز هياجاً شديداً . ولكن كان رأى السيد أحمد هادئاً متزناً ، مخالفاً للرأى العام ، فرأى أن هذه الثورة لا تأتى بنتيجة ، وأن آخرة أمرها عودة الإنجليز إلى السيطرة ثانية من غير فائدة إلا ضحايا الطرفين ، وأن قتل الإنجليز — وخاصة المدنيين — عمل غير إنسانىّ . لذلك وضع خطة بذل فيها الجهد مع بعض أصدقائه لحماية الإنجليز من القتل ، وإنجاء من تصل إليه أيديهم منهم ، فنجا على يده ويد أصدقائه كثير ، وضحى فى ذلك بالكثير من ماله وباضطهاد أقاربه ، حتى لقد طُعن بعضهم بالخنجر بيد الثائرين ، وماتت أمّه لهول الصدمة من وقع هذه الحوادث الأليمة . فلما هدأت الثورة عرف له الإنجليز فضله ، وحفظوا له جميله ، وكافئوه ماديًّا وأدبيًّا . ومن ذلك الحين تأكدت الصلة بينه وبينهم ، فاستخدمها فيما وضع من خطة إصلاح .

ومع هذا فقد وضع رسالة فى أسباب هذه الثورة باللغة الأُردية وترجمت إلى الإنجليزية كان فيها قاضياً منصفاً ، لم يتحيَّزْ فيها للهند ولا للإنجليز ، ولم يرْعَ فيها عداوة عدوّ ولا صداقة صديق ، فرد على بعض الجرائد الإنجليزية فيما ذهبت إليه من أن الثورة سببها تهييج الأفغان أو الروس للهنود ، وتدبير المؤامرات والدسائس منهما ، وعدّ ذلك سخافة من القول لا قيمة لها ، وأن حركة الثورة حركة شعبية صادرة من صميم الشعب ، سببها أن كثيراً من المآسى يشعر بها الشعب من سنين ، ثم لا تصل إلى السلطات العليا ، ولا تعلم بها حتى تعالجها ؛ فبينما الحكومة من جانبها تتبع خطتها المألوفة من جهل سعيد بما يدور فى أذهان الشعب ومايشعر به من آلام ، إذا بالشعب من جانبه يتهم الحكومة بعلمها بمآسيه وسوء القصد فى تصرفها ، كما أن الشعب يعتقد أن الحكومة تتدخل فى عقائده وشعائره الدينية ، وتؤيد — ولو

فى الخفاء — حركات التبشير فى البلاد ... إلى آخر ما ذكر من أسباب كان فيها صريحاً مخلصاً يقول ما يعتقد .

***

على كل حال إنما يهمنا منه دعوته إلى الإصلاح وعمله فى سبيله .

لقد نظر فرأى أن بالهند نحو سبعين مليوناً من المسلمين فشا فيهم الفقر والجهل والبؤس والقلق ، من تعلم منهم فتعلمٌ دينى عقيم لا يفتح نظراً ولا يبعث حياة . وهم خاضعون لرجال دين لا يفهمون من الدين إلا رَسْمه ؛ يريدون أن يخضعوا المدنية الواسعة لعقليتهم الضيقة ، ولا يعترفون بتغير زمان وتلوُّن حياة ، وتقدُّم علم ؛ يعيشون فى ركود والعالم حولهم مائج ، يرون أن المدنية الحديثة بعملها ونظمها ووسائلها ومقاصدها مدنية كفر لا يصلح للمسلم أن يستمدَّ منها ولا أن يتعاون مع أهلها ، وأنهم إذا فتحوا صدورهم لها أطاحت عقائدهم وأخرجتهم من دينهم . فى كل بلد أو إقليم « مُلاَّ » ، وهـذا الملا أو العالم الدينى يتسلط على عقول أهله ، فإذا فتح المبشرون مدارس حَرَّم هؤلاء العلماء على المسلمين أن يرسلوا أبناءهم إليها ، ثم لا يفتحون هم مدارس مثلها ، بل إذا فتحت الحكومة مدارس فكذلك يحرّمونها على أبناء المسلمين ؛ والهندوس يرسلون أبناءهم إلى هذه وتلك فيتثقفون ويصلحون للحياة ويشغَلون المناصب الحكومية ، والمسلمون بمعزِل عن الوظائف لأنهم فى مدارسهم الدينية البُدَائية بمعزِل عن الحياة . فالمدارس مملوءة بالنصارى والوثنيين ، وفيها القليل النادر من المسلمين ؛ وكانت نتيجة هذا أن أعمال الحكومة المتنوعة — وخصوصاً المناصب الكبرى منها — أصبحت وليس فى يد المسلمين منها إلا ما نَدَر .

وحركات الإصلاح الدينى التى قام بها بعض رجال الدين كانت دعوات

سلبيةً أو قليلةَ القيمة العملية . ففى سنة ١٨٠٤ قام الحاج شريعة الله يؤلف حزباً إصلاحياً قِوامُه أن صلاة الجمعة لا تصحّ فى الهند لأنها ليست دار إسلام ، ولذلك سمى حزبه « جماعة اللاجمعة » ، وما أكثر ما أخذت هذه المسألة من تفكيرهم ووقتهم ، وخلافهم وجدلهم ، ودخل فيها الملايين من مسلمى پنجاب .

وجاء مصلح آخر اسمه كذلك : « السيد أحمد » (١٧٨٢ — ١٨٣١) فحج واعتنق مذهب ابن عبد الوهاب ، وجاء إلى الهند داعياً بدعوته من تحريم زيارة الأضرحة والشفاعة بالأولياء ونحو ذلك مما ذكرنا قبلُ ، وزاد على ذلك دعوته أن الهند دار حرب لا دار إسلام ، وأن الجهاد فيها واجب على المسلمين ، فاصطدم هو وأتباعه بالحكومة الإنجليزية ، وكانت خصومة ، وكانت ضحايا ، ولم تكن هناك نتيجة ذات قيمة .

لم يعجب السيد أحمد خان هذا كله ، وتساءل فى حزم : ما علة هذا الجهل وضيق العقل والفقر وسوء الحال ؟ وأجاب فى حماسة : إنه التربية . ومن ذلك الحين ابتدأ يضع منهج التربية التى يريدها . وصادف ذلك أن ثورة سنة ١٨٥٧ كشفت لعقلاء المسلمين فى الهند حالهم ووجوب تغيير موقفهم وشعورهم بتخلفهم عن الطوائف الأخرى ، فتناغم تفكير « السيد أحمد » واستعداد الرأى العام المتنوِّر ، فأنتج هذا التناغمُ حركةَ إصلاح تُعد نقطة تحوُّل فى تاريخ المسلمين فى الهند .

قال لقومه يوماً : « انظروا إلى إنجلترا ، لقد كانت ثروتها تتمشى يوماً فيوماً مع تربيتها ، كلما زادت تربيتها زادت ثروتها ، وقد كانت منذ قرن وأمامها من العقبات والصعاب التى تعوق التربية أكثر مما عندنا ، ولم يكن لها إذ ذاك سكك حديدية ولا آلات ميكانيكية للطباعة ولا نحو هذا . إنما كان لها سعَةَ نظر وقوة إرادة » .

« لو أن الهند سنة ١٨٥٦ كانت تعرف العالم وتعرف قوّتها وقوة خصمها

من الإنجليز، وتزن الأمور بميزان صحيح وتدرك نتائج الأمور، ماحدثت الحوادث الأليمة التى حدثت سنة ١٨٥٧ — ألا إن الجهل سبب لكل شر».

وأول ما بدأ به خطته فى التربية إنشاؤه جمعية أدبية علمية فى عليكره — حيث كان قاضياً بها سنة ١٨٦١ — كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة فى التاريخ والاقتصاد والعلوم، وترجمة أهم الكتب الإنجليزية فى هذه الموضوعات إلى اللغة الأُرْدِية. وقد كان يرى أن تعلّم هذه العلوم باللغة الإنجليزية لا يكفى إلا فى تثقيف عدد قليل لا يُجْزِى[1]، إنما الذى يفيد فائدة كبرى نقل هذه العلوم إلى لغة البلاد حتى يشترك فى تفهمها والاستفادة منها أكبر عدد ممكن، ولذلك كانت خطته التى بدأ بها وسار عليها، نقل هذه الكتب الهامة من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الأردية، ولم يمنعه إعجابه بالإنجليز ولغتهم وثقافتهم من أن يكون صُلْباً حازماً شديداً فى طلبه نقل الكتب الإنجليزية للشعب، لا نقل الشعب للغة الإنجليزية.

ولكن سرعان ما هاج عليه الرجعيون والمتزمّتون من رجال الدين، يتهمونه بإفساد العقول و إفساد الدين و إفساد الوطنية، واشتبك فى حرب عَوَانٍ معهم انتهت بانتصاره بوضعه الحجر الأساسى لكلية فيكتوريا بغازى بور.

وحدث حادث كان له أكبر الأثر فى إصلاحه، ذلك أنه فى سنة ١٧٦٩، وهو فى نحو الثانية والخمسين من عمره، تقرر إرسال ابنه «محمود» إلى إنجلترا — عضو بَعْثة —، فانتهزها «السيد أحمد» فرصة وسافر معه؛ وحدثت له على السفينة طرائف رُويت عنه، من أحاديث فى الدين تحدَّث بها مع أصدقائه من الإنجليز تدلّ على غيرته على الإسلام مع سعة عقل، وابتهج حين مروره على شاطىء جزيرة العرب لأنها مبعث النبىّ.

---

(١) يجزى: يكفى.

نزل إنجلترا وقابل كثيراً من عظمائها ، منهم توماس كارليل ، وقد حدثه « السيد » طويلا فى محمد ﷺ ، ولعله كان لذلك أثر محمود فى كتابة « كارليل » الفصل البديع عن محمد البطل فى كتابه « الأبطال » ، وأخذ « السيد » يدرس نُظُمَ التربية فى إنجلترا ، ولفت نظره تربية الإنجليز للشعب أكثر مما لفت نظره تربيتُهم للخاصّة من المتعلمين . لقد دوّن إعجابه بخادمة المنزل تقرأ وتكتب ، وبربّةِ المنزل لها رأى فى السياسة العامة . وبالحُوذِىّ يقرأ الجريدة ويحتفظ بها ليتم قراءتها عند انتظار راكب ، ونادَى إذ ذاك بفكرته المتغلبة على ذهنه قائلا : « إن الذين يريدون إصلاح الهند الحقيقى يجب أن يجعلوا نُصْبَ أعينهم نقل العلوم والفنون والآداب الأوربية إلى لغة البلاد الأصلية ، وأحِب أن يُكتَب هذا الرأى بأحرف كبيرة جدًّا على جبال الهملايا لتذكره الأجيال القادمة . إن تقدم الغربيين إنما جاء من أنهم عالجوا الآداب والعلوم بلغتهم ، ولو كانت العلوم والفنون تعلّم فى إنجلترا باللغة اللاتينية أو اليونانية أو العربية أو الفارسية لظلوا جاهلين جهل الهند ، فما لم نهضم العلوم والفنون ونتمثلها بلغتنا فسنظَل فى حالتنا السيئة » .

ولعل قارئ هذا يطفر ذهنه — إذا قرأ هـذا النداء — إلى حالة البلاد العربية ، ويقول كما قال « السيد أحمد » : مالم تتوحّد اللغة العربية والعامية فى الأمم العربية وتنتقل العلوم والفنون إلى لغة الناس التى يتكلمون بها فى بيوتهم وشوارعهم ومعاملاتهم وسَمَرِهم ، فلا أمل فى إصلاح حقيقى . ورحم الله أستاذى « على بك فوزى » فقد زرته فى الآستانة وجلست معه جلسات طويلة ، أستفسر فيها عن ثورة تركيا ونتائجها ومحاسنها ومساويها ، فقال لى مرة : « حبذا لو تعلمتم التركية لا لأن أدبها رفيع المقام ، ولكن لتَرَوْا كيف استخدم الأتراك لغتهم وآدابهم لإصلاح عقولهم وشؤونهم » . وعقّب على ذلك فقال : « لا أمل فى إصلاح مصر مادام هناك لغة للعلم ، ولغة للكلام ، فإما أن ترقَى لغة الكلام ، وإما أن تنحط

لغة العلم حتى يتّحدا ، وحينئذ فقط يكون التفكير الصحيح والرقى الشعبى » .

وكنت مرة أقدِّم أديباً مصريًّا كبيراً لشرقى كبير ، فسألنى سؤالا غريباً : هل هو يكتب للخاصة أو للعامة ؟ فقلت : للخاصة ؟ قال : ومَنْ من الأدباء يكتب للشعب ؟ قلت : لا أحد ، قال : وا أسفاه !

واهتم « السيد أحمد » بدراسة نظام التربية فى المدارس الشعبية وفى الجامعات الإنجليزية ، وكان مما قاله : « إن الطفل فى مدارس إنجلترا يتربى ويتثقّف ، وأما فى مدارس الهند فيتعلم ، وشتان بين التربية والتعليم ، وإن الشاب فى الجامعات الهندية يفقد أخلاقه بسكناه فى أوساط المدن مع المغريات المتعددة ، كما أنه ليس فى هذه الجامعات عناية بالأخلاق والآداب والدين ، وأساتذتها ومدرسوها يعتقدون أن واجباتهم تنتهى بانتهاء دروسهم ؛ وآمال الشبان ومطامحهم محصورة فى وظائف حكومية ، من غير تفكير فى واجب لأنفسهم ولا لأمتهم » .

يجب تغيير كل ذلك ، ووضع منهج لمسلمى الهند غيرِ المنهج الذى يسيرون عليه .

— ٢ —

عاد « السيد أحمد » من إنجلترا وهو عاقد العزم على إصلاح حال المسلمين فى الهند عقلا وديناً ولغة وخلقاً واجتماعاً ، سواء فى ذلك خاصتهم وعامتهم ، مصمم على أن يغزوَ الجهل والجمود بكل ما يستطيع من قوة ، وأن يحمل المسلمين بكل الوسائل على أن يتقبّلوا المدنية الحديثة فى علومها وفنونها قبولا حسناً ، ويستخدموها فى ترقية حياتهم ؛ وأن يَبذلَ الجهدَ فى التوفيق بين الإسلام والمدنية ، فالإسلام فى جوهره وأصله معقول واسع الصدر لأحكام العقل غير مناهض لما يثبته العلم ، فإذا نُقِّيَ مما لحقه ، وليس منه ، أمكن أن يَقبل المسلمون على العلم الحديث من غير حَرَج .

جعل من أول خططه بعد عودته أن ينشىء فى الهند جامعة تكون للمسلمين كأكسفورد وكمبردج فى إنجلترا ، تُربى الخاصــة ، ثم هم يربُّون العامة ؛ وما زال يَكُدُّ ويسعى ويجمع المـال ويكافح العقبات توضع فى سبيله ، وأخيراً فاز بإنشاء كلية عليكرة المشهورة ، وحدّد لها أغراضاً ثلاثة :

١ — أن تعلم المسلمين الثقافة الغربية والشرقية فى غير تعصّب ولا جمود .

٢ — أن يُعْنَى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية ، فيجدوا فيها سكناً يقيهم شرور المدن ومفاسدها ، فيطمئنّ الآباء — حين يرسلون أبناءهم إليها — إلى أنهم فى بيئة صالحة لخلقهم ، مرقّية لآدابهم .

٣ — أن يُعْنَى فى نظام الكلية بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق معاً ، وبعبارة أخرى يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط .

وتمّ بناؤها واســتقبلت طلبتها تعلّمهم على المنهج الذى اختطّه ، ونجحت فى خَلق جيل من المسلمين جديد مثقف ثقافة واسعة ، مع سعة فى العقل وسماحة فى الدين ؛ وانتشر خِرّيجوها فى أقطار الهنـد يحملون رسالة جامعتهم ويضيئون ما حولهم ، وأصبحت كلمة « عليكرة » لا تدل فقط على كلية أو جامعة ، وإنما تدل أيضاً على نوع من العقلية الراقية ، والصِّبغة الخلقية والاجتماعية الخاصة .

لقـد أخذ الوطنيون المسلمون على خِرّيجى هــذه الجامعة وطلبتهـا أنهم لا يشتركون فى الحياة السياسية مع فضلهم ، وسعة عقلهم وغزارة علمهم ، حتى إنهم لا يضربون يوم تُضرب الجامعات الإسلامية لغرض سياسى ، ولكن هذه الصِّبغة هى التى صبغ بها « السيد أحمد » طلبته ، إقبالٌ على العلم وبُعدٌ عن السياسة .

فلما فرغ من هذه الجامعة أخذ يعمل فى اتجاه آخر ، فأنشأ مجلة دَوْرية سماها « تهذيب الأخلاق » عالج فيها المشاكل الاجتماعية والدينية فى جُرأة وصراحة ، وأخذ يفسر القرآن ، ويدعو إلى أن القرآن — إذا فُهم فهماً صحيحاً — اتفق

مع العقل ، وأن النظر الصحيح فيه يوجب الاعتماد على روحه أكثر من الاعتماد على حرفيته ، وأنه يجب أن يفسَّر على ضوء العقل والضمير .

وتطرّف أكثر من ذلك ، فقال إن الوحى كان بالمعنى دون اللفظ ، ذاهباً فى ذلك مذهب بعض علماء المسلمين المتقدمين الذين حكى قولهم السُّيوطىّ فى الإتقان ، إذ قال : « وذكر بعضهم أن جبريل إنما نزل بالمعانى خاصة ، وأنه صلى الله عليه وسلم عَـلِم تلك المعانى وعبّر عنها بلغة العرب » ، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : « نَزل به الروح الأمين على قلبك » (١) .

إذ ذاك هاج عليه كثير من رجال الدين ، وهَيَّجوا عليه العامة ، وتعرضت حياته للخطر ، وأراد أحدهم أن يطعَنَه مرة بخنجر فنجا منه بأعجوبة ، ومع هذا ظل ثابتاً جريئاً فى دعوته كما هو لم يتزحزح ، ولم يُدَاجِ ولم يُمارِ (٢) ، بل ربما كان بعد ذلك أقوى وأصرح فيما يقول وما ينشر ، لا يعبأ بنقد ولا تهديد بقتل ، ولا بأى ضرب من ضروب التخويف .

وكما كانت ناحيته الدينية جريئة خطيرة كذلك كانت ناحيته السياسية ، فكان يرى أن الغرض الذى يجب أن يرمى إليه السياسى الهندى هو أن تكون الهند كلها أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية يجب أن تكون عقائد دينية فى نفوس معتنقيها فقط . وهذه العقائد كلها يجب ألا تؤثر فى الوطنية ؛ فيجب أن يكون لكل طائفة عقيدتها الخاصة بها ، أما وطنيتها فتكون عامة تشترك فيها كل الطوائف . أما النزاع الطائفى الدينى ، والنزعة إلى تقسيم الهند على حسب الأديان ونحو ذلك ، فكلها أفكار باطلة ، وليس يؤدى إلى الاستقلال الحق إلا حصر الدين فى العقيدة ، وتعميم الشعور بالوطنية بين كل الأفراد وفى كل الملل ،

---

(١) وردت هذه العبارة فى الإتقان ص ٥٥ من الجزء الأول بالمطبعة الكستلية .

(٢) يداجى : يدارى . يمارى : يجادل وينازع .

وقال : « فى قطر كالهند تتقسّمه الطبقات ، وتتوزّعه النزعات الدينية الحادة ، ولم تنتشر فيه التربية الصحيحة التى تعد الناس كلهم سواء فى الحقوق والواجبات ، أرى ، بل أعتقد ، أن الانتخاب والتمثيل فى شتى المجالس ضرره أكبر من نفعه » ، ولهذا رفض أن يشترك فى المؤتمرات السياسية والأحزاب على اختلاف ألوانها ، فأغضب رجال السياسة كما أغضب رجال الدين ، ولم يعبأ بهؤلاء ولا هؤلاء . ووجّه كل همه فى أحب الأعمال إليه ، من اشتراك فى المجلس الأعلى للتعليم ، والمجلس الأعلى للخدمة الاجتماعية ، والإشراف على سير كلية عليكره .

ثم كانت له فكرة عظيمة نافعة ، وهى أن يجمع مؤتمراً كل عام يجتمع فيه قادة المسلمين من الأقاليم الهندية المختلفة ، كلّ عام فى مدينة ، يلقون فيه الخطب والمحاضرات عن الشؤون الإسلامية وأمراض المسلمين وعلاجها ، ويصدرون القرارات التى يرونها نافعة فى ذلك . وكان الغرض الذى يرى إليه « السيد » منه بثّ روح الائتلاف بين المسلمين فى البلاد الهندية ، وتبادُل الآراء فى خير الوسائل لترقيتهم ، والتعاون على الأعمال المفيدة من إنشاء المدارس أو النهوض بها أو نحو ذلك . وقد نُفّذت الفكرة ونجح المشروع ، ورأس « السيد » المؤتمر خمس سنوات قبل أن يتوفّاه الله ، ثم استمر يجتمع بعد حياته برياسة بعض أصحابه وأتباعه.

لقد سيطرت روحه على المؤتمر فى حياته وبعد مماته ، وهى روح تدعو إلى الهجوم على المدنية الغربية ، وأخذِ كل شىء حسن فيها ، وخصوصاً العلوم والآداب « إن النور لليوم يأتى من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق ، فيجب أن نأخذ من أوربة علومها ومدنيتها ، ونسير مع الزمان فى مضمار الحياة العصرية ، وذلك لا يُفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ، إنما يفقدهم ذلك الجهل لا العلم » « إن التعليم كان فى الزمن الماضى دينيّا محضاً لا يعبأ بالدنيا وما فيها ، وقد تطرف فى الأولى وأخلّ بالثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا » . « إن العلم

اتخذ شكلا جديداً ، فلم تعد طبيعيات أرسطو ، ولا نظريات ابن سينا ، ولا جَبْر الخيَّام ، ولا كيمياء جابر بكافيــة ، وهى لا تصلح للدراسة إلا من الناحية التاريخية » .

واهتم المؤتمر بالتربيــة وشؤونها ، ينتقد التعليم ومناهجه ويقترح الإصــلاح ، ويضع نُصْبَ عينه كلية عليــكرة « حتى تصل إلى درجة تساعد على ترقيــة النَّشْءِ وتهذيبــه ، وحتى تصل إلى درجة تكون فيهـا منبعَ العلوم ومحطَّ الرِّحال للطلبــة من جميع الأقطار الإسلامية ؛ وليس من البعيد عنــد ذلك أن ينبُغَ فيها أمثال ابن سينا وابن رُشْد وغيرهما من العلماء السابقين ينشأون فى مهد العــلوم الحديثة ، ويبحثون فيهـا وينهضون بها ، فإن هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيمياوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبيعية يعيدون لنا سالف مجدنا القــديم ، فيكون فيهم ابنُ موسى جديد يخــترع آلات جديدة ، وطُوسِيٌ آخر يكتشف كواكب ويحـــدد دوائرها ويضع كتباً فى علم الهيئة الحديثة وهكذا » .

« والذى نريده أن ينشأ أولادنا فى عالم من الحرية بعيدين عن المضارّ والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تُحيط بهم من كل جانب » .

عليــكم بالعلم ، فإذا شئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة وأخلاقكم الوَخِيمة ، واهتَدُوا بنور العلم فى طريق حياتكم التى تسيرون فيها .

« يجب علينا أن نشارك الأمم الغربية فى معارفهم وأن نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والأقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل ، ولا مُنْقِذ لنا من بَرَاثِنِ(١) الفقر ومخالب الجهـل إلا اقتطافُ علومهم وإدخالُ مدنيتهم

(١) البراثن : هى للسباع والطير بمنزلة الأصابع للانسان .

ليكون هناك شيء من التكافؤ بيننا وبينهم ، حيث لا حافظ لنا من الهلاك في هذا المزدحم الشديد إلا التكافؤ » .

هذه أقوال من أقوال أصحابه وأتباعه الذين حملوا الراية بعده في المؤتمر الهندي الإسلامي ، وكلها من روحه ومستمدة من تعاليمه(١) .

لقد ظل حياته يكافح في سبيل المسلمين في الهند كفاحاً شديداً ، وهو صابر على رميه بأشنع التهم من كفر وإلحاد وفقدان وطنية ، وأنه آلة إنجليزية ، شجاع في مقابلة كل ما يقف في سبيله يجتاحه اجتياحاً ، يرى أن المسلمين مرضى لا يشعرون بمرضهم إلا إذا ذاقوا طعم العافية ؛ فقراء لا يشعرون بفقرهم وسوء مسكنهم وغذائهم إلا إذا أكلوا الطعام الهنيّ ، وناموا على الفراش الوثير(٢) في المسكن الفسيح ، فعمل على أن يذوقوا العافية والغنى ليدركوا ما كانوا عليه من مرض وفقر ؛ وكذلك كان .

فقد رأى مسلمو الهند ناشئة جديدة عاقلة مفكرة مهذبة تصلح للحياة ، ورأوا كلية عليكرة تُنتج في البلاد حركة فكرية بديعة ، وتؤلف الكتب القيمة في أسلوب جديد قويم ، وأخذت الحياة تدب بين المسلمين بعد خمودها ، فآمنوا إذ ذاك بأن « السيد أحمد » مصدر نعمة وبركة ، لا كارثة ونقمة ؛ وإن اختلفوا معه في بعض آرائه .

ثم كانت له جولة إصلاح عظيمة في اللغة الاردية ؛ لقد كانت هذه اللغة قبله كاللغة العربية في عهد الظلام : عشق وغرام ومديح ، وأسلوب مزركش الظاهر فارغ الباطن ، فنقلها إلى آفاق واسعة ، وأصبح من موضوعاتها السياسة والاجتماع

---

(١) انظر طائفة كبيرة من خطب المؤتمر نشرت في جريدة المؤيد سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٢

(٢) الوثير : اللين

والأخلاق والدين والتاريخ والأدب فى أسلوب متين فيه القوة والسلاسة والصفاء والسعة ، غزير المعنى ، خال من التصنّع .

لقد بدأ « السيد » حياته فى اللغة الأردية شاعراً . فكان شاعراً عاديًا لم يَلفِت النظر إليه ، فلما اتجه إلى النثر ملك ناصيته وفتح فيه فتحاً مبيناً ، وبدأ ذلك فى جريدته التى أنشأها وسماها « سيد الأخبار » ؛ فلما أنشأ بعدُ جريدة « تهذيب الأخلاق » بلغ فى ذلك الغاية . وائتمَّ به كثير من الكتاب وأصحاب الجرائد فعالجوا بهذه اللغة موضوعات لم تكن تعالج فيها من قبل ، وبذلك أخذ الأدب الأردى يشق طريقه إلى التقدم ؛ يقول هو فى ذلك :

« لم آلُ جُهداً (١) فى ترقية العلم والأدب باللغة الأردية على صفحات جرائدى المتواضعة ، واتخذت فى ذلك أسلوباً يجمع بين السهولة والجزالة لا تعقيد فيه ولا تكلف ، تجنَّبت فيه الألفاظ الرنانة ، والاستعارات والكنايات الوهمية التى تنحصر فى الشكل ولا تتصل بالقلب ، وجَهِدْتُ فى تشويق القارئ إلى ما أكتب فيه ، ونقل مشاعرى وعواطفى إلى مشاعره وعواطفه » .

وتعددت موضوعات كتاباته ، فطرق كل موضوع ، وعالجه معالجة من يُلقى عليه ضوءاً كاملا لا يتركه حتى يكون واضحاً جليًّا فى جميع جوانبه .

ثم وجّه الناس إلى العناية بهذه اللغة وأدبها ، ونقل كثيراً من خير الآداب الأجنبية إليها . وكان له رأى فى الترجمة إلى اللغة الأردية بديع ، وهو عدم التقيد بالحرفية فى الترجمة ، ويرى أن هذا أسلوب واهٍ ضعيف ؛ وإنما الواجب أخْذُ الأفكار وعرضُها عرضاً جديداً بطريقة تتفق وذوقَ الهنود وتلائم أفكارهم . ولم تكن اللغة الأردية تشتمل على مصطلحات علمية ، فجَدَّ فى صياغة اللغة صياغة تتناسب مع العلم ، ووضع ما استطاع من المصطلحات ؛ وسار على هذا النهج طلبته .

---

(١) لم آل : لم أقصر أو أبطئ .

قال الأستاذ شبلي النعماني — عالم الهند العظيم — : « طالما كان النزاع بيني و بين السيد أحمد شديداً في آرائه الدينية ، وطالما فَنَّدت آراءه ، ومع هذا لا أنكر فضل أسلوبه العالي الذي استخدمه في شرحِه أفكارَه ، فكان أسلوباً رائعاً منقطع النظير ، مملوءاً بالفكاهة الحلوة ، والتنادر الظريف .

حدث مرة أن « مولوي علي بخش » نَقَده نَقْداً مُرًّا ، ثم ذهب إلى مكة بقصد الحج وأخذ فتوى من علماء مكة بتكفيره ، فكتب السيد أحمد في « تهذيب الأخلاق » :

« ما أعجب إلحادي . قد جعل مني كافراً وجعل منه حاجًا مؤمناً ! إني لفي شوق شديد لأن أرى فتواه . إنه كما قال الأول : إذا خُرِّب بيتي بيتُ الأوثان ، قام على أنقاضه بيتُ الإيمان . إن إلحادي كالأمطار ، تُخرِج أحسن الورود في البستان ، وأخسَّ الكَلَإِ (١) في الوديان » .

ولما صدر الأمر بإغلاق جريدة « تهذيب الأخلاق » كتب في آخر عدد منها : « طالما طرقتُ باب النيام ليستيقظوا ، فإن فعلوا فذلك ما أبغي ؛ وإن تخبَّطوا عند انتباههم وترنَّحوا يمنة ويسرة فرحلة لا تستوجب الرضا ، ولكنها مع ذلك تستوجب الأمل في يقظة المستقبل ، وليتها تكون .

وعندما ترى الأم طفلها مريضاً تلحّ عليه أن يشرب الدواء المرّ ، وهو يلحّ : دعيني يا أماه قليلا فسأشربه بنفسي .

وأنا كذلك سوف أطرق باب النيام دائماً ليستيقظوا ، وسأصيح بالأطفال المِرَاضِ : اشربوا اشربوا ، حتى يتجرّعوا .

لا أكِلّ ولا أملّ » .

وظل كذلك يدق الباب . ويُلح في شرب الدواء ، حتى أدرك الناس أخيراً

(١) الكلأ : العشب .

جدًّا أنه قام بعمل جليل فى لغة قومه وعقليتهم وتعليمهم وتربيتهم ، مهما عابوه فى بعض تعاليمه الدينية ، و بُعْده عن التدخل فى السياسة القومية .

فلما زار البنجاب فى آخر حياته استُقْبِل استقبال الملوك الظافرين ، والغزاة الفاتحين ، بل المصلحين الناجحين ؛ وأنساه نعيمُ الآخرة شقاء الأولى .

ولما بلغ الحادية والثمانين من العمر أسلم روحه لخالقه ، فبكاه الأوربيون والهندوس والمسلمون على اختلاف عقائدهم وطبقاتهم ومذاهبهم السياسية والاجتماعية ، وأشدّ ما بكَوْه من أجله ، شجاعتُه التى لا تُحَدُّ فى تنفيذ خطته ، وصراحته البالغة فى الجهر برأيه ، وعدم اعتداده بنقد الناقدين على اختلاف ألوانهم ، و إصراره على ألا يسمع إلا لصوت ضميره ؛ ينقد الإنجليز فى ترفّعهم ، والمواطنين فى تخلّفهم ، ورجال الدين فى جمودهم ، ورجال السياسة فى تخيلهم ، على حد سواء ؛ و يبكونه أكثر من ذلك لأنه مصلح عملى ، لا يكتفى بالنظريات والمبادىء يثيرها ، ثم يهدأ ضميره لأنه قد أدى واجبه ، بل لا يزال يسعى و يكدَح وراء مبادئه حتى يخرجها فى بناء وفى طلبة وفى معمل وفى مؤتمر وفى مجلة وفى درس ؛ وهى ميزة نَدَرَ أن تكون فى المصلحين ، ولذلك كانت نتيجته فى إصلاحه عمليةً كبيرَتِه ؛ فلو رأيتَ مسلمى الهند أيام سَلَفهم ، ورأيتهم أيام تسلّمهم لوجدتهم قد ارتفعوا درجاتٍ فى العلم ، وفى الفكر ، وفى الخلُق ، وفى اللغة ، وفى الصلاحية للحياة ؛ حتى لو قلنا : إن تاريخ المسلمين فى الهند قد تحور واتخذ اتجاهاً جديداً فى حياته و بحياته ، لم نَعْدُ الصواب .

ثم نرى فى بعض المصلحين عيباً كبيراً ؛ وهو أنهم لا يربّون من يحمل عَلَمهم ، و يكمل خطتهم ، وكثيراً ما يكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التى لا تسمح لشخصية عظيمة أخرى أن تظهر بجانبهم ، فتلتفّ حولهم الشخصيات الضعيفة التى تتقن الملَق والنفاق ، وتغذّى بأقوالها وأعمالها

عظمتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتنفِّر منهم الشخصيات القوية لأنها ترى فى نفسها نِدًّا أو شبهَ نِدٍّ ، لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن رأيها لرأيهم ، أو تتصنع النفاق للقرب منهم ، فإذا مات مثل هؤلاء مات إصلاحهم إلا من الرءوس أو ثنايا كتب التاريخ — ولم يكن « السيد أحمد » من هذا الطراز ، فهو قوىّ جبار فى اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمحُ النفس مع الناقد الشريف ، باذرُ الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجعٌ لأتباعه وتلاميذه أن يَرَوا رأيهم ، ويستعملوا حقهم فى صراحتهم ، كما يستعمل حقه فى صراحته .

ولذلك كان حوله و بعده من يكمل خطته ، ويسلُك منهجه ، ويحمل رايته ، ويُصلح ما أُخذ عليه ؛ من مثل سراج على ، والسيد أمير على .